ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600–6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

موقف الشيخ البكري بن عبد الرحمن التواتي من كتابات محمد بن مصطفى بن الخوجة الجزائري سنة 1898م

The Standpoint of Sheikh El Bekri Ben Abderrahmane El Twati Towards the Writings of Mohamed Ben Mustafa Ben El Khoja El Jazairi, year 1898.

اسم ولقب المؤلف المرسل للمقال: عبد الله بابا- Baba Abdallah صص277- 293
الدرجة والعنوان المهني: أستاذ محاضر ب- قسم العلوم الإنسانية- جامعة أدرار- الجزائر
البريد الإلكتروني: abd.baba@univ-adrar.dz

تاريخ استقبال المقال: 2019/12/14 تاريخ المراجعة: 2020/04/01 تاريخ القبول: 2020/04/16

الملخص باللغة العربية: عرفت الجزائر نهاية القرن 19م بروز جيل من المثقفين الجزائريين الإصلاحيين، الذين تناولوا في كتاباتهم ودروسهم الوضع الاجتماعي المتردي للجزائر في ظل الاحتلال الفرنسي، داعين في نفس الوقت إلى الأخذ بمقومات الحضارة الفرنسية، قصد تجاوز المنعرج المتأزم الذي وصل إليه المجتمع الجزائري، ومن بين الشخصيات الإصلاحية التي أثرت في الساحة الوطنية بنشاطها الصحفي والفكري محمد بن مصطفى بن الخوجة (الكمال)، الذي ألّف في مواضيع شتى لها صلة بالتراث والتعليم والمرأة، ورأت فيه الإدارة الفرنسية نموذج المثقف الملتزم والمتفتح الذي يخدم أهدافها من خلال كتاباته ودروسه وخطبه المسجدية، كما رأت فيه النخبة المثقفة الجزائرية رائد الإصلاح الوطني وأب النهضة الجزائرية الحديثة، غير أنّ مما وصل من تآليف لابن الخوجة إلى يد الشيخ والفقيه البكري بن عبد الرحمن بن الطيب التواتي قبيل الاحتلال الفرنسي للواحات الصحراوية (تيدكلت وتوات وقورارة) سنة 1900م، متمثلة في كتابيّ: "الاكتراث بحقوق الإناث" و"تنوير الأذهان في الحث على التحرز وحفظ الأبدان"، جعلت الشيخ البكري التواتي بعد تمحيص أفكارهما يتفرّس ببصيرته الغاية من وصولهما إلى يديه، في هذا الظرف الحساس الذي تمر به توات من وقوف القوات الفرنسية على أعتاب احتلال المنطقة، الأمر الذي دفعه إلى أن يدوّن عليهما ملاحظاته ونقده اللاذع

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600–6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

لأفكار العلامة ابن الخوجة في مخطوط بيّض مسودته في سنة 1898م، ويحمل في ثناياه عتاباً وتأنيباً للكاتب لما لمس في أفكارهما من مداهنة وتمجيدٍ للاستعمار الفرنسي.

الكلمات المفتاحية: البكري بن عبد الرحمن، محمد بن مصطفى بن الخوجة، الجزائر، توات، فرنسا، الاستعمار، النخبة، العلماء، التأليف، المرأة.

Abstract: *At the end of the 19th century, Algeria had witnessed the emergence of a generation of intellectual Algerian reformists, who wrote in their books and lessons about the degrading social situation in Algeria during the French colonization. They also called for taking with the elements of the French civilization in order to overcome the tense situation in which the society was struggling. Among the reformists who left a mark with his intellectual work is Mohamed Ben Mustafa Ben El Khoja (El Kamal), who wrote in different subjects that have a relation with heritage, education and women. Furthermore, the French leaders saw him as the educated, committed and open-minded modal who can serve their goals through his writings, lessons and sermons. The Algerian educated elites also saw him as the pioneer of reformation and the father of the Algerian renaissance. However, when the writings of Ben El Khoja, specifically "The Awareness of Women Wrights" and "The Enlightenment of Minds in the Urge of Carefulness and Self-Reserve" arrived at the hands of Sheick El Bekri Ben Abderrahmane Ben El Tayeb El Twati, just before the French colonization of desert oases (Tidiklt, Twat and Gorara) in 1900, it made him after a bright reviewing of its ideas and concepts understood the purpose beyond the arrival of such writings in such difficult situation that Twat was facing. Of course, this pushed Sheikh El Bekri to mark his notes and harsh criticism on the writings of Ben El Khoja in a script in 1898. This script holds a strong reproach and reprimand due to the writer's ideas of glorifying the French colonization.*

Keywords: El Bekri Ben Abderrahmane; Mohamed Ben Mustafa Ben El Khoja; Algeria; Twat; France; Colonization; The elite; Scientists; Authoring; Women.

1- المقدمة: أثبتت السياسة الاستعمارية الفرنسية المنتهجة في حق العلماء والمرابطين وشيوخ الطرق الصوفية مدى نجاعتها خاصة في النصف الثاني من القرن 19م، وبفضل هذه السياسة استطاعت أن تُدجّن أغلب الشيوخ والفقهاء بتقليدهم الأوسمة والنياشين، وأن تمنح لهم الامتيازات بما يحفظ لها بقاءها ومكانتها داخل المجتمع الجزائري، كما وظفت فتاواهم وكتاباتهم بما يساهم في تقبل المجتمع الجزائري للطروحات الاستعمارية، غير أن هذا الأمر لم يمنع علماء توات قبل احتلال منطقتهم من الوقوف مع الحق ورجاله، ومقارعة الباطل وأهله، والرد على الفتاوى والكتابات التي تحمل في جنباتها تمجيدا للسياسة الفرنسية، وتعتبر الوثيقة التي بين أيدينا مظهراً لا

غبار عليه من حيث النطق بكلمة الحق في تأليفين أصدرهما الشيخ محمد بن مصطفى الخوجة(ت1915)، ضمنهما تمجيداً لسياسة الحاكم العام الفرنسي للجزائر جول كامبون، جاء الأول تحت عنوان: "تنوير الأذهان في الحث على التحرز وحفظ الأبدان"، والثاني تحت مسمى: "الاكتراث في حقوق الإناث"، والذي مجّد من خلالهما جول كامبون وسياسته، عبر تضمينه في هذين التأليفين أفكاراً تشيد بمنجزات الإدارة الفرنسية الاجتماعية والاقتصادية والخدماتية، وردّ عليه الشيخ البكري التواتي بتأليف مخطوط عاب فيه على المؤلف تودّده إلى الدولة الكافرة العدوة- حسب تعبيره- مبيناً له المفاسد التي جرّها الاحتلال الفرنسي على الجزائر والجزائريين.

اعتمدنا في سبيل هذا الدراسة المنهج التاريخي وتحليل المضمون بغرض الإحاطة بأهم الملاحظات التي ساقها الشيخ البكري بن عبد الرحمن في مخطوطه حول تآليف ابن الخوجة، بتحليلنا لأهم الشواهد والقرائن والحجج التي دحض بها البكري ما جاء به ابن الخوجة في كتاباته، وللإحاطة بالموضوع أكثر يمكن طرح التساؤلات التالية: من هو الشيخ البكري بن عبد الرحمن التواتي؟ وما هي ملاحظاته حول تأليفيّ ابن الخوجة؟ وما أهمية المخطوط التاريخية محلياً ووطنياً؟

2- الشيخ البكري بن عبد الرحمن التواتي(ت1339هـ/1921م): ولد البكري بن عبد الرحمن بن الطيب عند أخواله بالزاوية البكرية[1] سنة 1260هـ/1844م، وتربى في بيت خاله الحسن بن سعيد البكري، حيث يتصل صاحب الترجمة في نسبه بالبيت التنلاني الأموي؛ فهو ابن الشيخ عبد الرحمن بن الطيب بن أحمد بن أمحمد بن محمد الطيب بن عومر بن معروف بن يوسف التنلاني[2]، أما عن تسميته بالبكري فيقول عن نفسه: أن أمه سمته على جده الشيخ سيد البكري بن عبد الكريم، وهذا ما ورد في تقييد من قوله: "الأصل في اسمي واسم كل من يقال له البكري...، كان الشيخ سيدي عبد الكريم بن أمحمد والد الشيخ سيدي محمد البكري قد طاف الأقطار في طلب العلم ولاسيما قطر مصر؛ فسمى ابنه سيدي محمد البكري، ثم سمتني أمي على الشيخ محمد البكري[3].

نشأ البكري بن عبد الرحمن في بيئة علمية صالحة حيث تعلم على يد والده ثم عند خاله الشيخ الحسن بن سعيد البكري(ت1286هـ/1869م)[4]، الذي كان يعد أفقه شيوخ العائلة البكرية في تلك الفترة، حيث درس عنده لمدة سنتين، ثم انتقل بعدها إلى

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600–6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

بلدة كالي[5] بتيميمون عند الشيخ مولاي عبد الحاكم بن عبد العالي بن محمد، ولازمه إلى غاية وفاته.

جلس الشيخ البكري بن عبد الرحمن للتدريس بالزاوية البكرية خلفا لخاله الشيخ الحسن بن سعيد الذي وصفه الشيخ باي بلعالم بقوله: "كان بحراً لا يُجارى"، وكان إذا سئل عن مسألة يقول للسائل: أتريد الجواب نظما أو نثرا؟ كذلك إذا سئل عن تدوين وثيقة يقول للسائل: أتريد الوثيقة نظماً أو نثراً؟[6]، كان همه طول حياته التدريس والتعليم والتدوين وخدمة العلم، كما عرف بزهده في الدنيا وملذاتها، ومن بين تلامذته الشيخ عبد العزيز بن الصافي البكري، والشيخ البكري بن محمد الصالح، والشيخ محمد بن عبد الوافي البكري، والشيخ سالم بن محمد الطيب البكري[7].

خلّف الشيخ البكري بن عبد الرحمن تراثاً متنوعاً وضخماً من الكتابات المتعددة الأغراض، جمعها في ديوان من أربعة أجزاء، نذكر منها:

- مجموعة كبيرة من القصائد في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم بلغت أزيد من ثلاثين قصيدة، تنم عن حبه له حتى لقب بـ"مدّاح النبيّ"، ومنها قصيدة خالية من حرف الألف الذي هو أكثر الحروف دورانا في الكلام، يقول في بيتها الأول:

مُحَمَدٌ كَنْزُ كُلَّ كَـوْنٍ وَعَيْنَهُ عَلَيْـكَ مَكُونِي يُصَلّي بِكَثْـرَةٍ[8]

- قصيدة أجاب فيها على سؤال الشيخ محمد محمود الشنقيطي[9].

- قصيدة في هجاء فرنسا عند دخولها لتوات جاء في مطلعها:

رَبِّ إِنَّ فِرَنْسَا الكُفْرُ جَارُوا في تَوَاتَ وجَازَفُوا بِفَسَـادٍ[10]

- منظومة "المعيار في ذم الاستقصاء للنظار".

- أرجوزة الأوليات المعروفة بالأرجوزة البكرية، وتشتمل على ثلاثة فنون "التوحيد والفقه والتصوف"[11].

- نبذة في علم الميراث.

- قصائد متنوعة الأغراض (الطب، عشبة الشاي، نصائح وحكم... وغيرها).

- منظومة في أوصاف الخيل[12].

- مخطوط في ذكر مناقب الشيخ محمد البكري بن سيد البكري تحت عنوان "الكوكب الدري في مناقب سيدي محمد البكري"[13].

توفي الشيخ البكري بن عبد الرحمن بن الطيب بالزاوية البكرية، ودفن بها سنة 1339هـ/1921م، وضريحه يقع شرق قصبة الزاوية المعروفة بـ"باعيسى"[14].

3- **محمد بن مصطفى الخوجة (الشيخ كمال)**[15]: يلقب بالمضرّبة، ولد بالجزائر العاصمة سنة 1865، أخذ علومه الأولى في حلقة درس المفتي علي بن الحفاف، وأيضا على يد الشيخ محمد السعيد بن زكري، تم توظيفه سنة 1880 حزّاباً في الجامع الأعظم بالجزائر العاصمة، ثم عين سنة 1884 حزاباً في الجامع الجديد، وبعدها مُنحت له وظيفة رسمية بالإدارة الفرنسية سنة 1886، وفي سنة 1896 عمل في جريدة المبشر الفرنسية كمحرر، وهناك كانت له إسهامات في الجانب الإصلاحي من خلال معالجة مواضيع اجتماعية تتعلق بالحياة السيئة للرجل والمرأة، مع نشر مواضيع لها صلة بالتعليم ومحاربة الخرافات والبدع، ونتيجة لمقالاته الإصلاحية تمّ عزله سنة 1901، في آخر عمره تفرغ لمهنة التدريس في جامع سفير، كما عين وكيلا على أوقاف ضريح الشيخ عبد الرحمن الثعالبي سنة 1913.

تمتع الشيخ بعلاقات وثيقة مع الشيخ محمد عبده عند زيارته للجزائر، بل كان مولعا به وبأفكاره الاصلاحية، ولم يفارقه طيلة بقائه في الجزائر، وعنه قال عمر راسم: "شاعر الجزائر في وقته، وأفصح علمائها وأعلمهم بتراجم علماء الجزائر، كان شغوفا بمحبة الشيخ محمد عبده، وهو الذي أدخل مذهبه إلى الجزائر، وعرَّف الناس به"، كما كانت له اتصالات برجال الإصلاح في المشرق كرشيد رضا ومحمد فريد[16].

وصفه تقرير المفتشين الفرنسيين الصادر في 1906-1907 "على أن ابن الخوجة أفضل من يعرف اللغة العربية وآدابها، وأنه يتكلمها بطلاقة، وأنه كان رجل فكر وتسامح وانفتاح، وأنه حلو الكلام وفصيح اللسان، كما كان يستشهد بالقرآن الكريم والحديث الشريف، ويستحضر بالإضافة إلى ذلك كتب التراث؛ فقد كان صاحب ذاكرة فذة، ناهيك عن نبوغه وقدرته على الإقناع إذ كان يدعو تلاميذه إلى الانفتاح وحرية الفكر والاعتقاد"[17]، ومن أهم مؤلفاته[18]:

- الاكتراث بحقوق الإناث: تم تأليفه سنة 1895، وترجمه إلى الفرنسية المستشرق آرنو، وترجع دوافع كتابته إلى الهجمات التي طالت المرأة الجزائرية من خلال الكتابات الفرنسية

التي كانت تطعن في تقاليد المرأة ولباسها، وعقد الزواج وشروطه، وقد بين من خلاله حقوق المرأة وواجباتها داخل الأسرة وخارجها.

- تنوير الأذهان في الحث على التحرز وحفظ الأبدان 1896.
- إقامة البراهين العظام على نفي التعصب الديني في الإسلام 1902.
- عقود الجواهر في حلول الوفد المغربي بالجزائر 1902.
- اللباب في أحكام الزينة واللباس والاحتجاب 1907.
- السمط الدري في مسائل تتعلق بالجدري.
- رسالة في مسيرة بعض علماء الجزائر.
- نفائس في مآثر بعض علماء الوطن.
- نشر كتاب "الجواهر الحسان في تفسير القرآن الكريم" لعبد الرحمن الثعالبي بعد مقابلته على سبع نسخ مخطوطة، والذي نشرته مكتبة رودوسي سنة 1904.

توفي الشيخ محمد بن الخوجة في 7شوال 1333هـ الموافق 17 أوت 1915م، ودفن بمقبرة الحامة بالجزائر العاصمة[19].

أراد الشيخ محمد بن مصطفى الخوجة من خلال عمله الصحفي والتعليمي إحداث نوع من الإصلاح الداخلي للمجتمع الجزائري، وذلك بنشر أفكار التسامح، ونبذ شعارات التفرقة والتعصب، كما دعا إلى محاربة الخرافات والبدع التي طمست بصيرة الشعب الجزائري[20]، والظاهر أن السلطات الإستعمارية كان يخدمها هذا الفكر الذي ساهم في نشر الأفكار الفرنسية عن طريق مؤلفاته وخطبه، وقد وصفته الصحف الفرنسية بأنه لم يكن متعصبا بل كان متفتحا وملتزما، ودعا إلى تعليم المرأة[21]، غير أن عمر راسم كان يرى فيه رائد الإصلاح وأب النهضة الجزائرية الحديثة[22].

4- ملاحظات الشيخ البكري على كتابات ابن الخوجة: جاء رد الشيخ البكري على كتابات ابن خوجة ضمن كتابه المخطوط المسمى بـ"الديوان"، والذي ينسب للشيخ البكري، وضمّ فيه كل ما ألفه في شتى الأغراض كالأدب واللغة والنحو والتاريخ والطب والتصوف، إما نثراً أو شعراً، والملاحظ أن الشيخ البكري اطلع على التألفين سنة 1898، وذلك قبيل الاحتلال الفرنسي لتوات سنة 1900م، وجاءت هذه الملاحظات في الديوان تحت عنوان: "الردّ على بعض علماء الجزائر لمّا وقف على تألفين من تآليفهم جبر الله

صدعهم"، ومن العنوان يمكننا أن نحكم بأن توات- خلال تدوين الردّ- لم تكن قد احتلت بعد، لكن يبقى التساؤل لماذا وصلت هذه التآليف المطبوعة في ظرف قياسي إلى يد الشيخ البكري؟ والجواب هنا يكمن وراء فرضية أن فرنسا قد بدأت في استراتيجيتها القائمة على تهيئة الأجواء لاحتلال منطقة توات من خلال إرسال مثل هذه الكتابات المدجّنة والممتدحة للاستعمار إلى شيوخ الزوايا بتوات قصد إيجاد مناخ مناسب يتيح لها السيطرة على المنطقة بأقل التكاليف، وليس غريبا إن قلنا أنّ هذين الكتابين قد وصلا إلى زوايا أخرى وشيوخ آخرين في عموم الصحراء، غير أن الشيخ البكري بن عبد الرحمن، وبما تميز به من قوة القلم، وحضور الفطنة، وغيرته على الإسلام والوطن جعلته لا يقف عند قراءة مثل هذه الكتب، وإنما عرف ببصيرته ماذا يُراد منها، وإلى أي مدى يمكن أن تؤثر في معنويات الجزائريين تجاه فرنسا؛ فجاء الردّ واضحاً على أفكار ابن الخوجة مثمناً حيناً ومعاتباً أحيانا كثيرة.

يبدو من مقدمة الشيخ البكري أنه لم يتعرّف على صاحب التألفين، معتبرا بأنهما لمؤلفين مختلفين، وذلك عندما يقول: "فلله درّ مؤلفيهما ومفوفي برديهما ومبدعي رصفيهما"[23]، وهنا يمكننا القول أن اسم المؤلف قد بتر من الصفحة الأولى، ووضعت بدل ذلك إشارة تبين نسبة التأليفين إلى علماء الجزائر، وهو ما دفع الشيخ إلى وسم مؤلفه "الردّ على بعض علماء الجزائر"، وقد فرغ الشيخ من تسجيل ملاحظاته على مؤلفي ابن الخوجة يوم الإثنين الأخير من شهر محرّم 1316هـ الموافق لـ13 جوان 1898م[24].

جاءت المقدمة بعد الصلاة والسلام تمدح التأليفين والمؤلف بقوله: "أما بعد؛ فقد أجلت جواد الفكر في ميزان صحائف الكتابين...؛ فألفيتهما روضتين زهراوين تجنى منهما الأثمار، وتصدح فيهما الأطيار...؛ فكان فيهما لذة الأذواق والإسماع والأبصار والجنان"، ثم أردف الشيخ الأديب هذه الكلمات الرنانة بنقد الأفكار والمضامين واقفا عند كل زلة قلم لابن الخوجة، غير متحرجٍ من صاحب التأليف، وكان مما عاتب عليه صاحب تنوير الأذهان قوله: "لما رأيت الدولة الفرنساوية العظيمة الشأن معتنية كل الاعتناء بصيانة صحة الأبدان"[25]؛ فلم يعجبه هذا الوصف، وأنكر عليه هذا التعظيم لدولة كافرة تحتل أرض الأسلام، كما أنكر عليه في موضع آخر تمجيد الحاكم العام جول كامبون بحجة إقامته لمستشفيين: أحدهما في بلاد القبائل والثاني في بلاد الأوراس، بقوله: "محتمية عن

الوباء بإقامة المحاجر، ومرام سمو الأغر الميمون، والينا الأفخم السيد جول كامبون"[26]؛ فكان عتاب الشيخ البكري على وصف الحاكم العام بستة أوصاف هي في الحقيقة أوصاف للمسلم ومنها: "السمو والأغر والميمون والينا والسيد والأفخم"، متعجباً ممن يدعي الإيمان ومحبة الله ورسوله، وفي نفس المكان يتودد لأعدائه الله أولي الكفر والطغيان[27]، ويبدو أن الشيخ ازداد انفعالاً برجوع ابن الخوجة في كتابه إلى الرفع من قيمة الدولة الفرنسية لديه عندما كتب: "على أن ما فعلته حكومتنا السنية"[28]، قائلاً في هذا الموضع: "قد رجع أيضاً لركاكة القول وخزعبلة الباطل وخساسة النطق، وكسوف العبارة، لأنه أضاف الحكومة النصرانية لنفسه ومعه أمثاله، ووصفها بكونها سنية أي رفيعة أو مضيئة، بل هي والله وضيعة مظلمة وطريق مدلهمة"[29].

وفي معرض حديث ابن الخوجة عن بعض العادات المشينة داخل المجتمع الجزائري التي وصلت إلى مسامعه، ومنها ما تعلق بقضايا الخلع وعدم توريث النساء، وهي عادات عرفت لدى بعض القبائل دون غيرها، وذكر بأن هذه العادات المذمومة قد تناقصت واندثرت منذ دخول الجزائر تحت مظلة الدولة الفرنسية، كما أن الحكومة الفرنسية قامت بإصلاحات أفضت إلى إخماد نيران الفتنة بين القبائل، ثم كتب قائلا يتودد للحكومة الفرنسية: "ونحن بناءً على ما اتصفت به من الرحمة والإنسانية نستلفت أنظارها الصائبة إلى استئصال عروق تلك الأعراف التي تشمئز منها النفوس، وتقشعر منها الجلود، وليس ذلك بعزيز على أمة فوفت برود الحضارة، وأورفت ظلال العمارة، وأخذت راية المعارف باليمين، واشتهرت بالعدل والإحسان بين العالمين، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا"[30]، لكن الشيخ البكري كان له رأي حازم في هذا الخطاب الذي رآه غير مبرر، بخاصة وأنه نسب الدولة الفرنسية له ومن سار في نهجه، واعتبرها قائمة بالإصلاحات التي ساهمت في وأد الفتن، ونشرت العدل والهناء، وهي حقيقة مغلوطة ظاهرة للعيان، من باب أن الاستعمار هو من نشر الفساد، وحطم أواصر الأخوة، وفرّق بين العشائر، وهجّر العديد من القبائل، مستغرباً من طلبه لها بمواصلة خططها وبرامجها الصائبة في محاربة مثل هذه الظواهر المستشرية في المجتمع الجزائري، بخاصة وأنها تعمل على نشر أفكارها الحضارية، ومما زاد من حدة قلم الشيخ البكري توظيف ابن الخوجة الآيات القرآنية للاستدلال على صنائع الحكومة الفرنسية مثل استشهاده

بالآية الكريمة ﴿فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[31]؛ فكان حري به- حسب البكري- أن يقول: "والله لا يهمل من أساء عملاً"[32].

وقد أشاد ابن الخوجة في كتابه "الاكتراث" بصنيع المرأة الفرنسية مع زوجها في مقابل ما يتلقاه الزوج الجزائري من معاملة سيئة من زوجته كقوله: "وهو أن جلّ نسائنا يتطاولن على رجالهن، ويكلفنهم ما لا يطاق من الإنفاق والتبذير، ومنهن من لا تحيي زوجها ولا ترحب به...، وسبب ذلك كله جهلهن وجهل أزواجهن بعلم الدين المرادف للفظة التمدن عند غيرنا"[33]، وعبر في موضع آخر عن ولعه بما وصلت إليه المرأة الفرنسية من المعاملة اللطيفة لزوجها معتبراً ذلك نابعاً من تعليمها وثقافتها، واصفاً إياها بهذه العبارات: "وبعكس ما ذكرناه، نساء الإفرنج فإن غالبهن لا ينهجن مع بعولتهن ذلك النهج، وما ذلك إلا لتغذيتهن بلباب المعارف، التالد منها والطارف...، وأنّى لنسائنا مجاراتهن في ميدان أو الموازنة معهن بميزان، وقد بلغن في الجهل الغاية القصيا، وركبن في حقوق أزواجهن متن عميا"[34]، وهنا وقف البكري بن عبد الرحمن موقف المدافع عن المرأة المسلمة الجزائرية التي حطمها الاستعمار وجَهّلَها، ثم أراد بمثل هذه الأقوال أن يقضي على ما بقي من حشمة وطهر وعفاف، مستنكراً تخاذل علماء الجزائر وعدم قول كلمة الحق، مستعملين المداهنة في غير موضعها، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[35]، وتوظيف المداهنة هنا مع الاستعمار محرمةً شرعاً، وهي عكس المدارات التي توظف عند الحاجة لقضاء الحوائج[36].

رأى الشيخ البكري أن ما وصل إليه صاحب التأليفين بصفة خاصة وعلماء الجزائر بصفة عامة من التخاذل ومداهنة الاستعمار نابع من الوهن الذي أحاط بقلوبهم؛ فسقط أغلبهم في شراك الاستعمار، مستحلين شهوات الدنيا ومناصبها على الهجرة ابتغاءً لمرضاة الله، لأن الضرورة تبيح لهم ذلك، وأن لا عذر لهم فيها، وهم آثمون إذ لم يأخذوا بها في مثل هذه المواضع[37]، ولم يخف الشيخ البكري خوفه على علماء الجزائر الارتداد من الإيمان إلى الكفر إذا طال أمد الاستعمار قياساً بما حدث لأهل الأندلس[38].

أما عن عدالة علماء الجزائر في هذا الزمان- آواخر القرن 19م- فقد تم تجريحها من طرف الشيخ البكري بقوله: "واعلم أيها الواقف على هذا أنّ علماء إيالة الجزائر

وقضاتهم وعدولهم في زعمهم ساقطة عند أهل الحق عدالتهم، ومردودة فتاويهم وأحكامهم، إلا من عذره الله أو تولاه الله من أهل الولاية الربانية"، معترفا- في نفس الوقت- بعلو مرتبة علماء الجزائر التي لا يشق لها غبار، حيث تشهد على ذلك مؤلفاتهم وإنتاجهم العلمي، مستفسرا "هل علماء إيالة الجزائر جاهلون أو متجاهلون"[39]، وفي نفس السياق أشار إلى مصيبة أخرى تحدق بأبناء الجزائر، وتكمن في إدخال أبناء الجزائريين إلى المدارس الفرنسية، وتعليمهم من طرف معلمين فرنسيين؛ فيكون الحال كما قال: "يطبخون في دورهم نجاساتهم العديدة...؛ فيكون الارتداد أقرب إلى صبيان المسلمين من شراك النعل"[40].

أبدى الشيخ في آخر كلامه خوفاً على ضياع توات بعدما تزاحمت القوات الفرنسية على حدود الصحراء حيث نصبوا قلاعهم على الطرق التجارية، وبثوا جواسيسهم في كل مكان، إلاَّ أنْ يتولاها الله بأمر من عنده، يكسر شوكة المستعمر عن طريق فئة مجاهدة أو بدعوة من أهل التصريف، "وأقول حسبي الله، وأخص إيالتنا بحرز حماية الله، وأفوّض أمري إلى الله"[41].

يبدو أن الشيخ بعدما أنهى كتابة- ردّه على التألفين- سلّمه لبعض فقهاء المنطقة من أجل قراءته، وتوضيح مفرداته وتصويب هفواته؛ فكان ممن حظي بقراءته، ووضع تقريظاً له الفقيه أمحمد بن أحمد الحبيب البلبالي[42] الذي رأى بأن ما جاء به البكري بن عبد الرحمن هو عين الصواب، وأن هؤلاء العلماء الذين ينسبون أنفسهم للشيخ عليش المصري[43]، ويَدّعون السير على نهجهم قد خالفوه في مسألة الهجرة التي تعد واجبة شرعا، كما أتى على ذلك الشيخ عليش في نوازله في فصل الجهاد[44].

وعلق الشيخ محمد بن أمحمد البلبالي[45] أيضا على ما جاء به الشيخ البكري معبرا في البداية على علو كعب الشيخ في مختلف العلوم مع زهده وخشوعه وقول كلمة الحق، ومما ذكره عن قيمة ما كتبه البكري بن عبد الرحمن قوله: "فاعلم أن هذا الجواب الصادر من هذا الفقيه الثبت أعلم الشيوخ...، هو عين الصواب الذي لا شك فيه ولا ارتياب؛ فلقد أفاد فيه وأجاد، وأبى وأعاد، وقرر المسألة أحسن تقرير، وحرّرها أتمّ التحرير، سالكاً في ذلك سبيل المحققين من العلماء الراسخين"[46]، وسجل أيضا في هذه الكلمة هجومه على العلماء الذين يتوددون للفرنسيين مع ادعائهم بمحبة الله فقال: "إن

العلماء المذكورين ليسوا بعبيد لمولانا بمحبتهم أهل شرك لأنه لا يجب أن تكون لغيره، وإن زعموا أنهم أحباؤه؛ فقد كذبهم العيان والسلوك مع الأعداء"[47].

5- أهمية التأليف: كتب الشيخ هذه النسخة التي بين يدينا في وقت كانت فرنسا على أبواب احتلال الواحات الصحراوية (تيدكلت- توات- قورارة)، لذلك تضمنت معلومات هامة اقتصادية واجتماعية وثقافية وعسكرية خاصة بمنطقة توات، ومنها الفتوى التي تحرّم الهجرة من المناطق المستعمرة التي تم توظيفها من طرف الحاكم العام جول كامبون في ما عرف بفتوى قورارة، وقد وقف لها علماء توات بالمرصاد من خلال معارضة الأدلة التي سيقت من قبل علماء الجزائر تجيز الإقامة تحت سلطة الاستعمار الفرنسي، وهذه الفتوى توضح بما لا يدع مجالا للشك الحالة التي وصل إليها بعض علماء وفقهاء الجزائر في آخر القرن 19م من تزلف وبحث عن المناصب، ومحاولة إرضاء الحكام الفرنسيين، بعدما دجّنتهم فرنسا بمنحهم النياشين والامتيازات والألقاب قصد عزلهم، وتوظيفهم في مشروعها الاستعماري، وتوضح الوثيقة أيضاً انبهار بعض العلماء بالمرأة الفرنسية، وما صلت إليه من تفتح ومستوى علمي على عكس المرأة الجزائرية التي تم ذمها بسب جهلها مع انتشار الخرافة الراجع أساسا إلى السياسة الاستعمارية في مجال التعليم الذي أفضى إلى هذه الحالة السوداوية للمرأة الجزائرية.

كما يسلط المخطوط الضوء على الحالة الاقتصادية والاجتماعية التي وصلت إليها توات في أواخر القرن 19م بعد المخالطات والتجارات الحاصلة من الاستعمار الفرنسي، ومن نتائج ذلك تغير النقود المتعامل بها من العملات المتعارف عليها والرائجة، إلى استخدام العملة الفرنسية التي وصفها الشيخ البكري: بأنها مشؤومة، تحمل على ظهرها صورة طاغية من أعداء الإسلام، ارتفعت باستخدامها البركة من التجارة القائمة مع حاضرة سجلماسة، وأصبحت الحاجة بذلك للنقود الفرنسية ماسة بعد رواجها بالمنطقة، وكثرة استخدامها في المعاملات، وساهم هذا الأمر في هجرة العديد من التواتيين إلى المناطق الشمالية للعمل لدى المعمرين، وخلت بذلك القصور من أهلها، وعند رجوعهم إلى توات تشم منهم رائحة التأثر بعادات المستمعر، ومما وضعهم فيه قوله: "وتشم منهم رائحة الكفر إلا قليلاً"، مع مدحهم لأسلوب الحياة الفرنسي ما تعلق منها بالعدل والمساواة وحرية الرأي والتعبير[48].

ومن خلال قراءتنا للتأليف أيضا يظهر لنا الجانب الصوفي في حياة الشيخ البكري بصفة خاصة، وفي حياة التواتيين بصفة عامة؛ فقد تحدث الشيخ عن عدالة علماء الجزائر، وأنها مجروحة وفتاويهم مردودة، واستثنى منهم أصحاب الأعذار من أهل الولاية الربانية كالشيخ محمد بن القاسم الهاملي[49]، ومن شابهه من أهل الطريقة الأخضرية؛ فأولئك لا يشك في علمهم، ولا يمكننا لنا إلا التسليم[50]- حسب قول البكري- وبعدما لاحظ البكري أن توات ستسقط لا محالة في يدي الاستعمار متنبأً بذلك، بعدما وصلته أخبار إقامة القوات الفرنسية على تخوم الواحات، إلا أنه تمنى أن يُقيض الله لتوات من يدافع عنها سواءً من أهل الولاية الربانية من الأولياء والصالحين أو بفئة مجاهدة، وهذا ما وقفنا عليه في قوله: "وإني أشفق من تهافت أعداء الله على الإقليم التواتي إلا أن يكسر الله شوكتهم بجماعة من أهل التصريف، أو بجماعة مجاهدة في الزمان الآتي لأنهم زاحموا هذه الإيالة، وما من جهة إلا وقد نصب في فنائها حباله، وإني أستنصر الله وأقول حسبي الله"[51]، ويمكن أن نقول هنا أنّ طَلَب المدد من الأولياء الصالحين أو فئة مجاهدة، دون ذكر دور للسلطنة المغربية في حماية توات يبرهن بما لا يدع مجال للشك أن توات لم تكن تحت سلطة هذه الأخيرة سواءً اسمياً أو فعلياً، ونفي الإدعاءات المغربية بتبعية هذه المناطق الصحراوية لها، وإلا ماذا يمكن لنا أن نقول على عدم ذكر الشيخ للسلطة المغربية في حماية المنطقة!

ومما جاء في ثنايا المخطوط حول العلاقات التجارية والتأثير المباشر على الاقتصاد التواتي، هو تغيير العملة المحلية المتعامل بها مع القوافل التجارية من عملات مغربية وإفريقية إلى العملة الفرنسية التي تسللت إلى توات عبر منفذين هما: التجارة الخارجية وفئة المهاجرين من التواتيين، الذين انتقلوا إلى الشمال بحثا عن العمل، وجلبوا معهم أثناء مرحلة العودة العملة الفرنسية، وأصبح لها رواج بتوات أدى إلى تفضيل التعامل بها عن غيرها من العملات الأخرى، وعن شكل العملة الفرنسية التي وردت إلى توات يقول الشيخ البكري: "وما من سكة من تلك السكة المشؤومة إلا وعليها رأس صورة طاغية أعداء الله"[52]، ويذهب الشيخ بعيدا في تأثير العملة الفرنسية على المنطقة بوصفها عملة منزوعة البركة جلبت معها الخراب والكساد، بعدما كانت التجارة ميسرة بين توات وسجلماسة، ومن مظاهر نزع البركة من العملة الفرنسية كما عاينها الشيخ البكري ما

وقف عليه بعد عودة المهاجرين من الشمال الجزائري الذي قضوا فيه سنين عديدة يجمعون الأموال، لكن بعد سنة واحدة تجد الشخص يرجع إلى حالته السابقة أو أسوأ من ذلك رغم تردده على الهجرة لتلك الديار المحتلة[53].

الخاتمة: أخيراً يمكن الإشارة إلى أن الوثيقة التي بين أيدينا هي مصدر تاريخي هام لفترة حساسة من تاريخ توات، تضمنت مؤشرات اقتصادية واجتماعية عشية الاحتلال الفرنسي للمنطقة، ومن ناحية أخرى حملت نقدا لاذعاً ساقه الشيخ البكري بن عبد الرحمن للعلامة محمد بن مصطفى بن الخوجة الجزائري يدخل في إطار توجيه العلماء والشيوخ إلى الأخذ بزمام الأمة في الدفاع عن مقوماتها الشخصية والدينية، دون محاولة السير في ركب المخططات الاستعمارية التي أرادت من هذه الفئة القيام بدور المثبط للأمة والمنظر للحضارة الفرنسية، وينم الرد أيضا على مدى اطلاع الشيخ البكري بن عبد الرحمن على قضايا عصره المصيرية الاجتماعية منها والاقتصادية التي عصفت بالجزائر، وأن الفوارق المكانية لم تكن يوماً عائقاً في حمل هموم الجزائر، والتأثر بما حصل للشمال وما سيحصل لتوات في قابل الأيام.

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600–6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

الملحق رقم1: الصفحة الأولى من مخطوط (الرد على بعض علماء الجزائر)

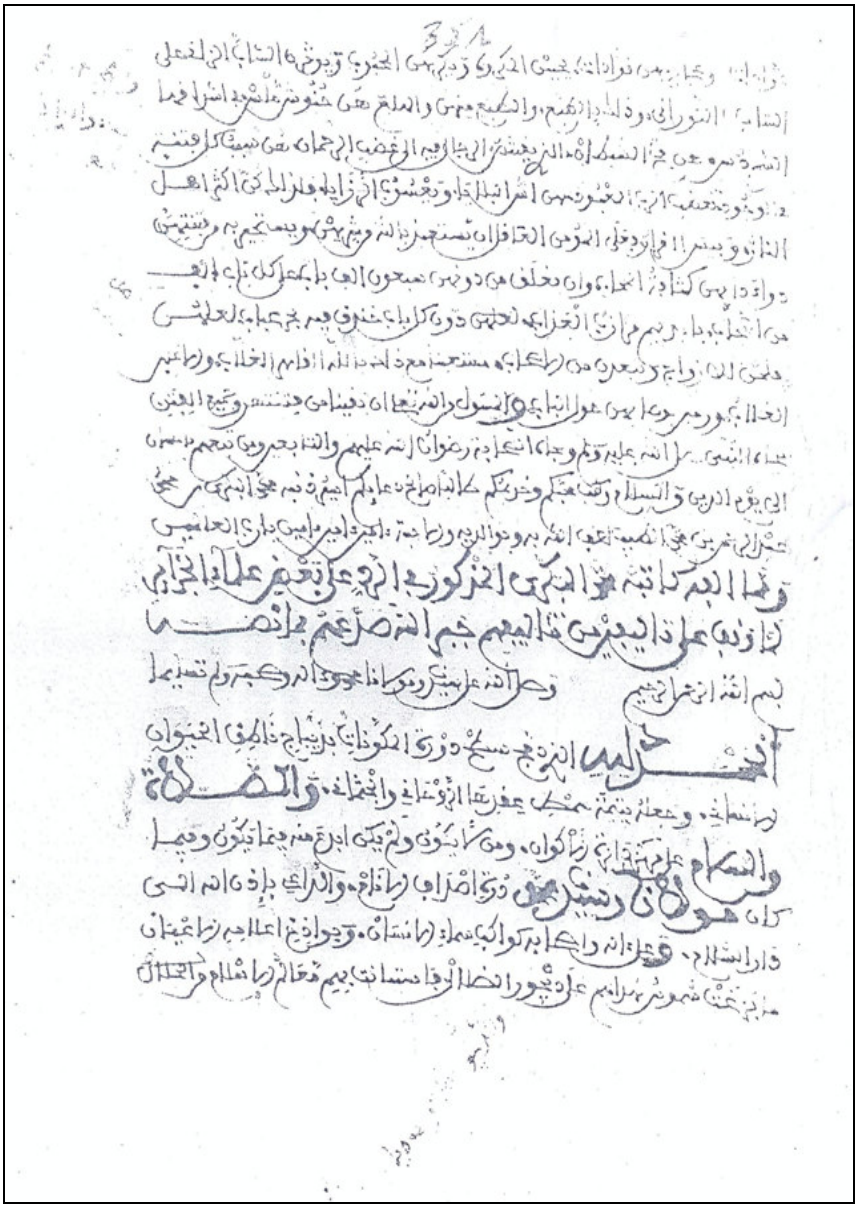

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600–6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

الملحق رقم2: الصفحة الأخيرة من مخطوط(الرد على بعض علماء الجزائر)

الهوامش:

1- تأسست الزاوية البكرية سنة 1112هـ/1701م على يد الشيخ سيد البكري بن عبد الكريم بن أمحمد التمنطيطي، حيث تم تكليف الشيخ محمد بن سيد البكري بإدارة شؤون الزاوية برضى إخوته الثلاث وبإيعاز من سيدي علي بن حنيني، فسكنها عام

1117هـ/1705م، وابتدأ عمارتها واستصلاح أراضيها وتفجير ماء فقارتها، ثم تولى أمر الزاوية بعد وفاته ابنيه عبد الكريم ومحمد الصالح، ثم تولى شؤونها الشيخ بوزيان ثم الشيخ سعيد ثم محمد الطيب وبعده سيد البكري بن المبروك بن محمد الصالح ثم الحسن بن سعيد(ت1286هـ/1869م). للمزيد انظر: عبد الله بابا: الزاوية البكرية ودورها الثقافي والاجتماعي بإقليم توات من 1112 - 1421هـ / 1700 - 2000 م، مذكرة ماجستير، إشراف أ.د عبد الكريم بوصفصاف، قسم التاريخ، جامعة أدرار، الجزائر، 2012-2011، ص ص59-65.

2- تقييد حول الشيخ سيد البكري بن عبد الرحمن، مخطوط بيد الحاج عبد الله بكراوي، غوزي، أدرار، الجزائر.

3- محمد باي بلعالم: المباحث الفكرية شرح على الأرجوزة البكرية، مطابع عمار قرفي، باتنة، الجزائر، دن، دس، ص8.

4- الحسن بن سعيد البكري: يعتبر أشهر الأعلام العلماء الذين أسسوا مجلس علم بالزاوية البكرية. ولد بالزاوية البكرية سنة 1210هـ/1796م، أخذ العلم بحاضرة ملوكة على يد الشيخ عبد العزيز البلبالي وحصل منه على إجازة في جميع الفنون التي أخذها عنه، كان له مجلس علم تخرج على يده شيوخا وفقهاء، منهم: ابنه الشيخ محمد، والقاضي الحاج محمد بن عبد الرحمن، الشيخ البكري بن عبد الرحمن التنلاني، له عدة مؤلفات وهي: غاية المنتظر وفتح الجليل في أصول بعض فروع مختصر خليل، مخطوط في تراجم العائلة البكرية، قصائد متعددة الأغراض. انظر ترجمته: عبد الله بابا: المرجع السابق، ص ص109-110.----5- كالي إحدى قرى مقاطعة أولاد سعيد بتيميمون وتبعد عنها ب 30 كلم ناحية الشمال.

6- محمد باي بلعالم: الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، ج1، دار هومه، الجزائر، 2005، ص162.----7- البكري بن عبد الرحمن: منظومة أوصاف الخيل(شفاء القلب العليل بتحقيق شرح منظومة البكري على أوصاف الخيل)، تح: محمد سالم بن عبد الكريم، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2006، ص34.----8- محمد باي بلعالم: الرحلة العلية، المرجع سابق، ج1، ص168.

9- للمزيد انظر: أحمد جعفري: "الشيخ سيد البكري بن عبد الرحمن(1339هـ) ومناظرته الشهيرة مع الشيخ محمد محمود الشنقيطي"، مجلة النخلة، العدد الثاني،مجموعة القروط، أدرار، سبتمبر2006، صص30-31.----10- محمد باي بلعالم: الرحلة العلية، المرجع السابق، ج1، ص173.----11- وضع لها الشيخ باي بلعالم شرحاً سماه "المباحث الفكرية شرح على الأرجوزة البكرية".----12- حققها الشيخ محمد سالم بن عبد الكريم تحت اسم "شفاء القلب العليل بتحقيق شرح منظومة البكري على أوصاف الخيل" .----13- توجد نسخة منه بخزانة الأثرية لقصبة السي الطيب التابعة للزاوية البكرية، أدرار، الجزائر.----14- تقييد بيد الحاج عبد الله بكراوي، شيخ زاوية غوزي، قصر غوزي، أدرار، الجزائر.

15- أنظر ترجمته: عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من عصر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، 1980، ص138/محمد بن مصطفى ابن الخوجة الجزائري: الاكتراث في حقوق الإناث، تع: زهير قوتال، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971، صص3-8/أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، صص83-88.----16- عادل نويهض: المرجع نفسه، ص138.

17- محمد بن مصطفى الخوجة: الاكتراث، المصدر السابق، ص5.----18- أعمال محمد بن الخوجة: منشورات خمسينية جامعة الجزائر، الجزائر ، 2012، صص10-11/عادل نويهض: المرجع السابق، ص138.----19- أعمال محمد بن الخوجة، ص11.----20- محمد بن مصطفى بن الخوجة: الاكتراث، صص6-7.----21- أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج6، ص ص349-350.----22- المرجع نفسه، ج3، ص ص87-88.----23- البكري بن عبد الرحمن التواتي: الديوان، ج4، مخطوط، الخزانة الأثرية، زاوية سيد البكري، أدرار، الجزائر. ص352.----24- المصدر نفسه، ص365.----25- محمد بن مصطفى بن الخوجة: تنوير الأذهان، المصدر السابق، ص90.

26- المصدر نفسه، ص90.-----27- البكري بن عبد الرحمن: المصدر السابق، ص353.----28- محمد بن مصطفى:تنوير الأذهان، المصدر السابق، ص90.----29- البكري بن عبد الرحمن: المصدر السابق، ص353.----30- محمد بن مصطفى: الاكتراث، المصدر السابق، ص38.-----31- سورة هود، الآية115.----32- البكري بن عبد الرحمن: المصدر السابق، ص356.

33- محمد بن مصطفى بن الخوجة:الاكتراث، المصدر السابق، ص61.----34- محمد بن مصطفى: الاكتراث، المصدر السابق، ص ص61-62. ----35- سورة القلم، الآية9.----36- البكري بن عبد الرحمن: المصدر السابق، ص356.

37- هنا يشير الشيخ البكري إلى فتوى قورارة التي وظفها جول كامبون تجيز للمسلمين الإقامة تحت سلطة الكفار في حالة ما سمحت الحكومة الفرنسية للمسلمين بإقامة شعائرهم. للمزيد انظر: محمد الأمين بلغيث: سياسة التوسع الفرنسي في الجنوب الغربي، مجلة المصادر، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، ع33، الجزائر، 2000، صص134-139.--
--38- البكري بن عبد الرحمن: المصدر السابق، ص357.----39- المصدر نفسه، ص356.
40- نفسه، ص359.----41- نفسه، ص364.
42- أمحمد بن أحمد الحبيب البلبالي: ولد بقصر ملوكة سنة 1248هـ/ 1832م من أسرة مشهورة بالعلم والصلاح, أخذ العلم عن والده وعن الشيخ محمد عبد العزيز البلبالي, تصدر للتدريس والفتوى, تولى منصب القضاء سنة 1892, وظل به الى غاية وفاته سنة 1902 . للمزيد انظر: الصديق حاج احمد: التاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن 11هـ إلى القرن 14هـ , ط2 , منشورات الحبر, بني مسوس, الجزائر: 2011, ص 95. أحمد بن محمد بن حسان: الشجرة المرجانية في التعريف بالأسرة البلبالية الركانية, دار هومه، الجزائر، 2010، ص133.
43- محمد بن أحمد بن محمد عليش المالكي: ولد بالقاهرة وتعلم في الأزهر، وولي مشيخة المالكية فيه، من تصانيفه فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الامام مالك، و منح الجليل على مختصر خليل في فقه، توفي بالقاهرة سنة 1882م. انظر ترجمته: خير الدين الزركلي: الأعلام، ج6، دار العلم للملايين، بيروت، 2002، ص19.
44- البكري بن عبد الرحمن: المصدر السابق، ص365.
45- محمد بن أحمد البلبالي(ت1354هـ/ 1935م): ولد بكوسام سنة 1277هـ/1860م, أخذ العلم عن والده وعن عمه الشيخ عبد الله بن أحمد الحبيب البلبالي, تقلد منصب القضاء سنة 1912م, وظل به إلى غاية وفاته سنة 1935م. انظر عبد الله بابا: الحياة الاجتماعية والاقتصادية بتوات إبان الاحتلال الفرنسي 1900-1962م من خلال سجلات المحكمة الشرعية، أطروحة دكتوراه، إشراف د. مبارك جعفري، قسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة أدرار، 2018-2019، ص68.----46- البكري بن عبد الرحمن: المصدر السابق، ص366.
47- المصدر نفسه، ص366.----48- نفسه، ص ص361-362.
49- هو أبو عبد اللّه محمّد بن أبي القاسم بن ربيح بن محمّد بن عبد الرحيم الشهير بالهامليّ : فقيه ، له مشاركة في علوم الحديث والكلام والتاريخ و الأخلاق والتفسير تعلّم القراءة والكتابة وحَفظ القرآن في بلده ، ثمّ قصد زاوية ابن أبي داود في زواوه فأخذ عن مؤسّسها علوم التفسير والفقه ، كما درس فنون العربيّة، أسّس زاويتَه المعروفة بزاوية الهامل سنة 1863م، من مؤلفاته منظومة الاسمائية، توفي سنة 1897. عادل نويهض: المرجع السابق، ص335.
50- البكري بن عبد الرحمن: المصدر السابق، ص351.----51- المصدر نفسه، ص364.----52- نفسه، ص361.
53- نفسه، ص ص362-363.